البحث الثالث

نظرة إلى اللغة المندائية

لا تزال المندائية ؛ كما كتب الدكتور يوسف قوزي في مقال له ؛ بقواعدها وأبنيتها اللغوية في شرقنا الأوسطي أرض شبه بائرة ، لم يحاول أحد بجدية وعلمية أن يفلحها ويستخرج بعض من مكنوناتها وصيغها العريقة القديمة ، والسبب في رأينا هو قلة عارفيها وزوال الناطقين بها فيما عدا استعمالاتها المحدودة في المراسيم الدينية لدى المندائيين وحدهم ، وهم قليل عددهم كما هو معروف ، لكن المستشرقين الأوروبيين من أمثال الفرنسي بونيون والألماني نولدكة وبروكلمان وليدزبارسكي ورودولف والانجليزية دراور ، عملوا الكثير حقًا في ميان هذه اللغة التي هي إحدى اللهجات الآرامية.

فاللغة المندائية في رأينا وبعد احتكاكنا بها عن كثب هي مزيج من لهجات السورن التي ما يزال يتداول بها السريان الشرقيون والغربيون من اللغة السريانية الفصيحة المعروفة ، إلا أن أحد من أصحابها – ومع الأسف الشديد– لم يبذل جهدًا علميًا كافيًا لاستخراج مكنوناتها أو الكشف عن كنوزها اللغوية والأدبية والدينية المخفية هنا في الشرق.

وحسب علمنا أن هناك الآن في العراق محاولات جادة ، وإن شاء الله قد تكون مثمرة فعلاً فيما يتعلق بالمندائية ، ومن أجل أن نكون صادقين ودقيقين ومنصفين تجاه اللغة المندائية وأصحابها الذين حافظوا عليها مخفية في مخطوطات قديمة ، نقوم في هذه العجالة بدراسة لغوية خاطفة لإحدى مواعظ كتابهم المقدس (كنزا ربا يمينا) ، إنها جزء من الكتاب الثامن عشر ، ونصها المندائي المخطوط يقع في الصفحتين (٢٨٠– ٢٨١) وتسلسل هذه الموعظة هو الرابع عشر في سلسلة المواعظ العشرين الواردة في نهاية كتاب (الكنزا ربا يمينا) ، وعنوانها هو الأثري يعظ تلاميذه:

١- الفاتحة : هذه الموعظة الرابعة عشر كسائر مثيلاتها في الكنزا ربا يمينا المقدس تبدأ بعبارة : (بشوميهون دي هيي ربي – باسم الحي العظيم) ، فالكلمة الأولى هي اسم جمع مذكر في حالة الإضافة وهو مسبوق بحرف الباء الذي يجر في اللغة العربية (وليس في المندائية إذ لا إعراب حركي فيها نظير شقيقاتها الآراميات الآخر) ، كما أنه ينتهي بضمير الغائبين المتصل العائد إلى كلمة (ربي) ، وهذا الاسم كله بسابقته (الباء) وبلاحقته (هون) هي في حالة الإضافة بالواسطة.

ويكون الضمير المتصل (هون) هنا للتوكيد عادة ويعود دائمًا إلى المضاف إليه في اللغات واللهجات الآرامية ، والمندائية إحداها كما هو معروف مفرده المعرف هو (شوما) ومفرده النكرة المضاف هو (شوم) ، الكلمة الثانية قصيرة وهي (دي) أداة إضافة بالواسطة (ومن المؤسف أن المندائيين يقرأونها اد) ، وهذا خطأ مرفوض لغويًا.

الكلمة الثالثة هي كلمة (هيي) ومعناها أما هو الحي أو الحياة ، وهذا يخلق مشكلة كبيرة إذ من الصعب للغاية أن يفرق المرء في تحديد أحد المعنيين ، وهذه الكلمة كثيرة الاستعمال في كتاب (كنزا ربا) وبالمعنيين الاثنين ، هذه اللفظة المندائية هي دائمًا في صيغة الجمع المذكر وهي معرفة لا مفرد لها ، وهي في حالة الإضافة لذلك نجد أن الكلمة الرابعة وهي ربي؛ نعت جمع مذكر معرفة لأن الصفة تتبع الموصوف في جميع أحواله ، ومعناها الدقيق وبالصيغة هو العظماء ولها مفرد مذكر هو ربا العظيم.

أما الجزء المندائي الثاني من فاتحة هذه الموعظة وأيضًا كسائر مثيلاتها فهو (تزورب نجورا شنيا- يعظم النبوي السني) والكلمة الأولى من هذا الجزء هو فعل حاضر مفرد ، وهو شبيه باسم المفعول النكرة نظير سائر اللهجات الآرامية والسريانية ، وقد بدأ بحرف الميم لأن جذر هذا الفعل رباعي هو والرباعي المجرد في اللغات السامية جميعًا يعامل معاملة المزيد على الثلاثي ، وهو مبني

للمجهول، أما إذا كان معلومًا فيكون شبيهًا باسم الفاعل، والكلمة الثانية هي نهورا ومعناها هو النور، وهي في المندائية اسم مفرد مذكر معرفة فاعل (نائب فاعل في العربية) للفعل الرباعي (مرورب) المبني للمجهول، أما الكلمة الثالثة والأخيرة من هذه الفاتحة فهي (شنيا) ومعناها السني، وهي نعت مفرد مذكر معرفة.

٢- الخاتمة: والآن نترك مضمون هذه الموعظة الرابعة عشر من كتاب (الكنزا ربا يمينا) المقدس حتى لا نطيل الحديث فيمل قارئنا منا، ونأتي حالاً إلى خاتمتها التي تنتهي بكلمات ثلاثة: (مشبين هيي زاخين – متحدث هو الحي وناصر).

فالكلمة الأولى "مشبين" تعني يتحدثون أو متحدثين المنصوبة عربيًا، وهي فعل حاضر جمع مذكر وهو شبيه باسم الفاعل النكرة نظير سائر اللهجات الآرامية والسريانية، قد بدأ بحرف الميم لكونه مزيد الثلاثي على (انفعل) أي تفعل في العربية، وجذره الثلاثي المجرد في المندائية هو شيا، وفي السريانية والآراميات هو شعا، وهكذا إن مزيده يكون في المندائية أشتيا أي تحدث فهو متحدث، وقد اضطررنا إلى أن نترجمه بالمفرد المذكر لأن فاعله في اللغة العربية هو الحي، في حين أن هذه الكلمة (الفاتحة) في المندائية هي جمع مذكر.

الكلمة الثانية "هيي" في المندائية ومعناها أما هو الحي أو الحياة مثلما قلنا ذلك سابقًا، وهذه لفظة هيي المندائية تأتي دائمًا في صيغة الجمع المذكر المعرف ولا مفرد لها بتاتًا، لذلك جاء فعل السابق مشبين في صيغة الجمع المذكر، حيث إنها فاعلة له.

أما الكلمة الثالثة والأخيرة فهو (زاخين): ومعناها (أزكياء ناصرين)، وهي فعل حاضر جمع مذكر، وهو شبيه باسم الفاعل النكرة، وهو فعل معطوف على ما

سبق ، ولو أنه خال من واو العطف ، وهذا الفعل ثلاثي مجرد معتل الأخر بالياء، وإن كان مفردًا تكون صيغته (زاخيا) بدلاً من (زاخين).

وقد ظهر هنا في المندائية مجموعًا تطابقا تطابق من لفظة (هي)، ولكن الأخوة المندائيون قد وقعوا في خطأ حين ترجموا (هيي زاخين/ الحي مزكي) ، معتبرين صيغة (زاخين) اسم المفعول كأنها مأخوذة ومشتقة من فعل مبني للمجهول والحال أنها فعل ثلاثي مجرد معلوم ، ولذلك لابد من ترجمة اللفظة هكذا، (الحي، زكي، ناصر)، لأن الله سبحانه هو دائمًا فاعل وفعال، ولا يمكن جعله مفعولاً به أبدًا.

ختامًا ، وبما أننا في عصر التقدم والانفتاح في الشؤون كلها نتمنى أن يسير المندائيون نظير غيرهم من أصحاب الأديان السماوية ، من الآن وصاعدًا نحو الانفتاح بدينها السماوي شبه المكتوم حتى الآن على المجتمعات البشرية حيثما يعيشون ، الأمر الذي يقتضي استخراجهم قواعدها في الصرف والنحو من كتاب كنزا ربا ، وغيره من كتبهم المقدسة ، وسيتم ثانية باللجوء إلى أهل العلم والمعرفة للقيام بترجمة سائر كتبهم المقدسة المدفونة على المخطوطات حتى الآن ، وبدءًا بكتاب كنزا ربا هذا والله هو الموفق.

اللغة المندائية في جامعة بغداد :

شكرًا لعمادة كلية اللغات في جامعة بغداد كما ذكرت الأستاذة فريال زهرون نعمان ؛ والتي تعتبر أول جامعة على مستوى جامعات الوطن العربي تتناول دراسة اللغة المندائية بقواعدها ، وترجمة بعض النصوص المختارة من كتبنا المقدسة كجزء من مقررات التدريس في قسم اللغات السامية للدراسات العليا (الماجستير) ضمن قسم اللغة العبرية برئاسة الأستاذ الدكتور عادل هامل الجادر.

أما فكرة إنشاء قسم الدراسات السامية كانت تدور في أذهان أساتذته الأفاضل في قسم اللغة العبرية، حتى تمَّت الموافقة في ١- ٧- ١٩٩٣، أن القائمين على التدريس في هذا القسم من أساتذتنا الأفاضل وأغلبهم خريجو جامعات أجنبية مهتمون بهذه الدراسات، وهم الأستاذ الدكتور عادل هامل الجادر رئيس القسم، الأستاذ الدكتور خالد إسماعيل علي ، الأستاذ الدكتور يوسف متى قوزي ، الأستاذ الدكتور صبيح مدلول السهيري.

يقبل في هذا القسم الطلبة الحاصلون على شهادة البكلوريوس في اللغة العربية، اللغة العبرية، والآثار ، وأول دفعة من الطلبة قبلت للعام الدراسي ٩٣- ١٩٩٤ وكان ضمنهم الطالب الشيخ هيثم مهدي سعيد.

ومن الدراسات التي تناولت المندائية كدراسة أو مقارنة مع بقية اللغات السامية، وقبلت لنيل شهادة الماجستير في هذا القسم:

- بحث مقدم الأستاذ أحمد الشريف بعنوان (الفعل الثلاثي في اللغة العبرية دراسة مقارنة في اللغات السامية، ١٩٩٤)، وهي (الآكدية، الآرامية، العبرية، السريانية ، المندائية ، العربية الجنوبية ، العربية القياسية) ، من خلال معالجة واحد من أهم مواضيعها ألا وهو الفعل معتل ، وتعتمد هذه الدراسة أسلوب المقارنة والتحليل للأفعال المعتلة بالألف والواو والياء ، وعلى مختلف أنواع الاعتلال ، مع محاولة عقد مقارنة بينها وبين نظائرها من الأفعال المعتلة في

اللغات السامية الأخرى، بقصد الكشف عن جذور الأوامر المشتركة بين هذه اللغات، لأنها تنتمي إلى فصيلة لغوية واحدة.

– بحث مقدم من قبل الآنسة فريال زهرون نعمان بعنوان: (أواني الأحراز المندائية في المتحف العراقي ١٩٩٦)، تناول هذا البحث عرض لخمسة عشر نص مندائي مكتوب على أوانٍ فخارية محفوظة في المتحف العراقي، وترجمة وتحليلات ومقارنة مع دراسات سابقة مماثلة، والتي حدد تاريخها بين القرنين الرابع والتاسع الميلاديين، ومحاولة الكشف عن أماكن العثور عليها، والتي تركزت في محافظة واسط وديالي وبابل، بالإضافة إلى انتشارها في محافظة الأنبار بغداد وميسان.

– بحث مقدم من قبل الأستاذ بهاء عامر الجبوري بعنوان: (دراسة معجمية مقارنة لألفاظ كتابات الحضر، ١٩٩٦)، تناول مجموعة من الكتابات النقشية الحضرية المنشورة في المجلات والمصادر العلمية، والبالغ عددها ٤١٦ نص، وهذه الدراسة هي محاولة تستهدف الوصول إلى الألفاظ التي جاءت فيها مع نظائرها من اللغات السامية الأخرى، وكانت المندائية من ضمنها.

– وقدم الأستاذ عبد المجيد سعدون الصباحي بحث بعنوان: (أسماء الأعلام المندائية في كنزا ربا، دراسة لغوية مقارنة في اللغات السامية ١٩٩٧)، تناول فيه على وجه التخصيص أسماء الكائنات النورانية وغير النورانية من أسماء الأعلام الوارد ذكرها في كتابنا المقدس كنزا ربا في اللغة المندائية بالشرح المفصل لهذه الأسماء حسب العقيدة المندائية، ومحاولة إعطاء تصور دلالي عنها من أجل تشخيص أهم أنواعها والبحث في جذورها ورصد أوجه التشابه بينها وبين الأسماء المماثلة لها في مجموعة اللغات السامية الشقيقة، وقد اختار منها (اللغة العبرية، الآرامية، العربية، العبرية، السريانية، الآكدية).

– بحث مقدم من قبل الآنسة سوسن الضاحي بعنوان (حروف الجر والظروف في سفر التكوين، دراسة مقارنة ١٩٩٨)، وهي محاولة لتسليط الأضواء على

أدوات الربط في اللغة العبرية، وحصر حروف الجر والظروف الواردة في سفر التكوين من ناحية أشكالها وأنواعها وأهم استعمالاتها، مع محاولة اعتماد أسلوب المقارنات والموازنات مع ما يناظرها من اللغات السامية الأخرى، ومعرفة العلاقات والخصائص التي تشترك فيها تلك اللغات، وملاحظة أشكال التشابه والاختلاف بينها وبين حروف الجر والظروف المماثلة لها في اللغات السامية الأخرى، وتناول هذا البحث المندائية كذلك، وقد أظهرت النتائج المتحققة من هذه الدراسة اتفاق هذه اللغات مع بعضها البعض في حروف الجر والظروف أحياناً، وافتراقها في أحيان أخرى.

وهناك بحوث أخرى قيد المنافسة والتي أدخلت المندائية ضمن مقارناتها اللغوية... فتحية طيبة لكلية اللغات قسم اللغة العبرية ولجهود الأساتذة الأفاضل القائمين على تدريس اللغة المندائية في قسم اللغات السامية.

اللغة المندائية... دراسة مقارنة مع اللغة العربية :

تشكِّل اللغات أهم تراث خلفته الشعوب، ذلك كما ذكرت الأستاذة ناجية مراني في مقال لها، حيث أضافت أنه تشتهر الجزيرة العربية بكونها مهد لمجموعة من اللغات تعتبر من أعرق وأقدم اللغات في العالم، تلك هي مجموعة اللغات السامية.

وترجع نسبة السامية هذه إلى المستشرق الألماني شلوتسر الذي اشتقه من قائمة الأنساب الواردة في العهد القديم والتي ترجع أنساب البشر إلى أبناء نوح الثلاثة: سام، حام، يافث.

وقد لاحظ المعنيون بدراسة هذه اللغات وجود أوجه شبه تجمع بينها، إذ أنها تشترك أو تتقارب في أمور أساسية من جوهر اللغة، فقالوا بوجوب وجود وحدة مشتركة أو لغة لم تجمع شمل الشعوب التي تكلمت هذه اللغات، وقسموها إلى مجموعتين:

١- المجموعة السامية الشمالية، وتشمل اللغات البابلية والآشورية والآرامية (سريانية ومندائية) والكنعانية والعبرية.

٢- المجموعة الجنوبية وتشمل اللغة العربية بلهجاتها واللغة الحبشية.

وقد أجريت دراسات عديدة على تلك اللغات مجتمعة أو متفرقة، ونشرت كتب وبحوث لا حصر لها، وكانت المندائية إحدى تلك اللغات التي عني بها المستشرقون عناية خاصة، وأقدم ما ألف عنها هو كتاب المستشرق الألماني نولدكه الذي نشره عام ١٨٧٥ تحت عنوان: Mandaische Grammatik، وقد اعتمد في دراسته المندائية على الأدب دون الاحتكاك المباشر مع أهلها، وبذلك وردت في كتابه المذكور ثغرات كانت سببًا لأسفه الذي أعلنه بعد ذلك.

ومع ذلك فإن كتابه بقي معتمد المستشرقين الذين عاودوا المحاولة بعد مرور قرن على صدور كتابه، فقد ألف المستشرق رودولف ماكوش كتابه الذي نشر عام ١٩٦١ بعنوان Handbook Of Classical And ModernMandaic،

وقد اعتمد فيه على كتاب نولدكه من جهة ، وعلى الاحتكاك المباشر مع الصابئة المندائيين من جهة أخرى ، كما أن ماكوش نفسه اشترك مع السيدة دراور في تأليف قاموسها المعروف Mandaic Dictionary وهو مندائي انجليزي ، هذا بالإضافة إلى ما ورد عن اللغة المندائية ضمن المؤلفات والبحوث الأخرى التي تناولت الصابئة المندائيين بصورة عامة.

إن الأسباب التي دعت المستشرقين إلى الاهتمام باللغة المندائية – كما يقول أوليري – كثيرة، وأهمها كون تلك اللغة ذات فائدة كبيرة لدراسة اللغات السامية الأخرى، وذلك لاحتوائها على قدر عظيم من الأدب من ناحية، ولكون عزلتها بعدتها عن التأثر باليونانية أو غيرها من اللغات.

ويضيف ماكوش إلى ذلك إعجابه بمرونة النظام الصوتي لهذه اللغة ، علاوة على وجود تراث صوتي لها ، إذ مازالت لغة أدب وكلام في الوقت ذاته ، مما يسهل تحليلها ودراستها دراسة دقيقة.

إن الدراسات والبحوث التي أجريت على اللغة المندائية حتى الآن كانت من قبل مستشرقين أوربيين ، وقد بنيت على أساس مقارنتها مع اللغات السامية الأخرى على العموم ، وبعبارة أخرى فإن المندائية لم تقارن من قبل كاتب عربي مع اللغة العربية مقارنة مباشرة.

ويجد الباحث العربي الذي يتخذ من لغته خلفية للبحث تشابه كبير بينها وبين المندائية ، مما يرى بوضوح كون اللغتين انحدرتا من أصل واحد ، فتطورت العربية ونمت واكتملت ، بينما انزوت المندائية فبقيت مقصورة على المخطوطات القديمة وعلى التفاهم العائلي المحدود.

فالأبجدية المندائية تتفق والأبجدية العربية ، تلك الأبجدية الموجودة في اللغات السامية وهي: أبجد هوز ، حطي ، كلمن ، سعوص ، قرشت... إلا أنها خالية من الحروف التي أضيفت إلى العربية وسميت الروادف ، وتلك الحروف المندائية هي أقرب إلى صورة الحروف العربية من غيرها من اللغات السامية الأخرى.

اللغات السامية وموقع المندائية بين هذه اللغات :

في مقال له؛ ذكر الأستاذ عبد المجيد سعدون الصباحي الحاصل على ماجستير في اللغات السامية؛ أن اللغات السامية قد احتلت في الأزمنة البعيدة في أسيا الغربية (من الشرق إلى الغرب) مناطق ما بين النهرين، سوريا وفلسطين وشبه الجزيرة العربية، وهذا ما يمثل موطن اللغات السامية.

أول من أطلق هذه التسمية هو العالم النمساوي شلوتسر في أبحاثه وتحقيقاته في تاريخ الأمم الغابرة سنة ١٨٧١م ، وقد استخلص هذه التسمية من الجدول الخاص بانتساب سام بن نوح (ع) الواردة في التوراة/ التكوين ١٠، عندما كان يبحث في نهاية القرن الثامن عشر عن تسمية مشتركة للعبريين والعرب والأحباش الذين توجد بين لغاتهم صلات القرابة.

وقد اصطلح الباحثون على تسمية الأصل المشترك هذا باللغة الأم، وسميت اللغات المتفرعة عنه بالفروع، وحيث أن اللغة الأم لأي من العائلات اللغوية المعروفة كانت قد استخدمت في افتراض لم تكن فيه الكتابة معروفة لتحفظ لنا نصوص منها، لذا حاول العلماء المحدثون من خلال الدراسات اللغوية المقارنة لأفراد العائلة اللغوية الواحدة وضع صورة عامة تقريبية لبعض خصائص تلك اللغة التي ظلت آثارها شاخصة في بعض اللغات التي تفرعت عنها.

وفق المفروض إن هذه اللغة الأم كانت متداولة في فترة سحيقة في القدم في الشرق الأوسط في العراق وسوريا، منهم تفرق المتكلمون بتلك اللغة وانتشروا بهجرات أو جماعات في أنحاء الشرق الأدنى القديم، وتعرضت كل هجرة أو مجموعة إلى تأثيرات داخلية وخارجية مختلفة ، واحتكت بأقوام وحضارات متفاوتة، وعاشت في بيئات متباينة في فترات زمنية متباعدة أحياناً، فحملت كل منها طابع خاص مميز يختلف عن بقية الفروع في نواح كثيرة، ويجتمع وإياها في أوجه شبه أساسية تشير إلى القرابة الموجودة بين هذه الفروع، وقد حمل كل فرع تسمية خاصة به... أما العربية الشمالية فهي لغة وسط الجزيرة العربية وشمالها، والتي تسمى باللغة العربية العظمى.

إذن عرفنا أن المندائية هي لهجة آرامية شرقية، تتحدث بها طائفة الصابئة، وقد اصطلح الباحثون اللغويون على تقسيم اللغات السامية نسبة إلى أماكن انتشارها، وإن اختلفوا أحياناً في تفاصيل كل تقسيم، واستنادًا على ذلك فهي تقسم إلى: شرقية وغربية، وتقسم الغربية بدورها إلى غربية شمالية وغربية جنوبية، فالسامية الشرقية هي الآكدية بفرعيها البابلي والآشوري، أما السامية الغربية الشمالية فتشمل اللغتين الكنعانية والآرامية، والكنعانية بدورها تنقسم إلى الكنعانية الشمالية وتمثلها اللغة الأوغارنية، والكنعانية الجنوبية وتتمثل باللغة العبرية والفينيقية والموابية... أما القسم الثاني من أقسام السامية الغربية الشمالية فهو اللغة الآرامية، وتقسم إلى قسمين منها: هوامية الشرقية والآرامية الغربية، ويضم قسم منها مجموعة من اللهجات، فالآرامية الشرقية تشمل السريانية والمندائية، وآرامية التلمود البابلي، والحضرية ومجموعة اللهجات الآرامية الغربية تشمل اللهجة السامرية وآرامية العرب الأوائل.

أما القسم الغربي الجنوبي من اللغات السامية فيضم لغتين هما العربية والحبشية، العربية تقسم إلى قسمين هما: العربية الجنوبية والتي تتمثل باللغة الحميرية، وموطنها اليمن، وجنوبي الجزيرة العربية، وتقسم إلى لهجتين السبئية والمعينية، المندائيون، ازدهرت حسب النصوص المتوفرة منذ القرن الثالث الميلادي، خلافًا للساميات الأخرى، ونطقها (اد) وليس (دي) على غرار ما تكتب به.

وغياب الحركات في اللغة المندائية أدى إلى استخدام حروف العلة بدلاً منها، وأيضًا ظاهرة فقدان حروف الحلق (ع، ح، خ، غ) بمهارة في المندائية على خلاف اللغات السامية الأخرى.

رأي المؤرخين والمستشرقين بالمندائيين ولغتهم :

يجمع كافة المؤرخين والباحثين الغربيين على أن الدين المندائي قديم الجذور في التاريخ، ويجزم غالبيتهم بأنه نشأ وترعرع في ربوع بلاد الشام، خاصة في الأردن وفلسطين، ويرون أن المندائيين كانوا أصلاً في بلاد الشام، وأن الدين المندائي ظهر في بادئ الأمر هناك ثم نزحوا إلى مصر والعراق بسبب الاضطهاد الذي لحق بهم، وكان ذلك قبل الميلاد، كما تقول دراور، وفي القرن الأول الميلادي كما يذهب ماتسوخ.

كما أنهم علقوا على إشكالية التسمية التي أطلقت عليهم، ولكنهم خلصوا إلى القول بعد أن اطلعوا على المؤلفات الدينية المندائية وترجمتها بأن سواد الصابئة يسمون بالمندائيين، أي المعرفيين أو أصحاب العلم، أما رجال دينهم فيسمون بالناصورائيين، أي المتعمقين بالدين والمطلعين عليه وعلى أسراره، وهي مأخوذة من كلمة ناصيروثة المندائية، وتعني الضليع في العقيدة.

وقال هؤلاء الباحثون أن المندائيين هم من أصل آرامي، ويستدلون على ذلك بلغتهم المندائية التي هي لهجة من الآرامية، فهناك اللهجات السريانية والكلدانية أيضًا، والتي تسمى باللهجات الشرقية، أما اللهجات الغربية كما يقولون فهي لهجة تدمر والأنباط التي تمَّ تحويرها إلى اللهجة العربية الشمالية، أي لغة أهل الحجاز، ويقولون إن المندائيين لعبوا دور كبير في الحياة الروحية والثقافية، سواء في بلاد الشام أو في بلاد الرافدين، وامتد هذا التأثير منذ ظهور المسيحية وربما قبلها بقليل حتى ظهور الإسلام، لا سيما أيام ازدهار الحياة الفكرية والاجتماعية في بغداد في العهد العباسي الأول، وكان لهم دور خاص في نقل الفلسفة اليونانية إلى العربية، كما كان لهم دور ملحوظ في العلوم الرياضية والفلكية والطب والأدب، وكان هذا سببًا في تقريب البلاط العباسي والبويهي لبعضهم، وقد أثار هذا الدور انتباه المفكرين والمؤرخين العرب، فكتبوا عنهم الكثير.

ولكن مع تدهور الدولة العربية إثر احتلال المغول ثم العثمانيين ؛ ابتعدت الطائفة عن الحياة العامة ، وتعرضت إلى الاضطهاد بعض الأحيان ، ويقول هؤلاء المؤرخون أن هذه الطائفة اجتذبت انتباه الرحالة والباحثين الغربيين منذ منتصف القرن السادس عشر الميلادي ، عند زياراتهم لبلاد الرافدين ، فبدأت المحاولات الأولى عام ١٦٢٢م للترجمة من قبل الأب (أكناسيوس) الذي ترجم ديوان أباثر واحتك بأبناء الطائفة في مدينة البصرة ، ثم أبراهام الإيطالي الذي ترجم (دراشة اد يهيا ، وأسفر ملواشة) ، واعتذر لعدم وجود قاموس لفهم بعض مفرداتهم.

المندائية والحاجة إلى البحث العلمي :

بدعوة من القسم الثقافي في مجلس شؤون الطائفة العام ، وبتاريخ ١٢-٣-٢٠٠٤ ؛ ألقى الأستاذ عزيز سباهي محاضرة على قاعة المندي أمام عشرات المثقفين المندائيين والضيوف عنوانها : (المندائية والحاجة إلى البحث العلمي) ، وقد طرح جملة أشياء وتساؤلات ينبغي التمعن فيها والوقوف عندها ودراسة نتائجها إذا أردنا كتابة تاريخ المندائيين المعاصر.

وما طرحه صعوبة البحث في تاريخ المندائيين ونشأة الدين المندائي لعدم وجود معلومات وافية عن ذلك لأسباب عديدة ، منها : عدم اهتمام المندائيين أنفسهم بتدوين تاريخهم ، وعزوف المؤرخين عن ذلك ، وطمسهم للكثير من الحقائق لأسباب دينية ، أو لجهلهم اللغة المندائية أو عدم التقصي الجدي عن الدين المندائي ، واعتمادهم على الرواية والحكاية...

ثم أشار المحاضر إلى بداية اهتمام المستشرقين الغربيين بالدين المندائي في القرنين التاسع عشر والعشرين عندما ظهرت في ألمانيا حركة بحث علمي حول قضية المسيحية في أيامها الأولى ، ودراسة شخصية المسيح التاريخية بصورة علمية واقعية تخضع للبحث العلمي المعاصر.

فعندما درس المختصون الإنجيل الرابع (إنجيل يوحنا) ؛ وجدوا أن هناك علاقة ما بين المسيحية والفكر المندائي ، مما جرهم إلى نقاش واسع حول المندائية وأفكارها ، ولهذا تعلموا المندائية ليدخلوا في عمق الموضوع ، فتوصل (لدزبارسكي) وهو عالم ألماني مختص باللغات السامية إلى ترجمة الكتاب الديني الرئيسي للمندائيين الكنزا ربا (الكنز الكبير) في القرن التاسع عشر بدقة متناهية ، مما مكنه من الإطلاع الدقيق على أمور الطائفة المندائية وأفكارها.

ثم تواصلت تراجم الكتب الدينية الأخرى من قبل المستشرقة (دراور) وغيرها ، ويقول المحاضر : وبسبب جهلي التحدث بالمندائية اضطررت للجوء إلى الدراسات الإنجليزية والإطلاع على كل ما وضعه المستشرقون الغربيون من

الشواهد والقرائن التي تثبت وجود المندائيين التاريخي، ونشأة دينهم، ومواطنهم الأولى ، ومن أهم هذه القرائن الكتب الدينية المندائية التي تعود إلى القرن السادس الميلادي، وكذلك النقود والعوذ وألواح الرصاص التي عثر عليها في أهوار العمارة وجنوب غرب إيران ، والأواني الفخارية المتواجدة في متحف بغداد وبعض متاحف العالم.

إلى جانب معلومات توفرت في نجع حمادي في مصر تحتوي على رسائل تتحدث عن أقوام قريبين من المندائيين ، اسمهم (الشيثيون) ، وكذلك ما نقله المؤرخون، سواء ما دونه آباء وكتاب الكنيسة الأوائل في القرن الثاني والثالث والرابع الميلادي، مثل تيودور برخوني في القرن الرابع الميلادي أو مؤرخون عرب مثل ابن النديم في الفهرست ، وما صدر عن المانويين ، أو ما كتبه البيروني في القرن الثالث عشر الميلادي، والشهرستاني في (الملل والنحل) ، وكذلك التذييلات الواردة في الكتب الدينية المندائية لكُتَّاب ونُسَّاخ مندائيين.

من كل ما ذكر استطعنا التعرف على العديد من القضايا التاريخية المبتورة عن الطائفة ، وإني أخص بالذكر هنا كتاب ديني مندائي مهم اسمه (ترسر وألف شياله) ، أي ألف واثنا عشر سؤال، وناسخه اسمه (رومي برقيامات) ، ذكر فيه أنه دونه في الوقت الذي كان فيه العرب يدخلون العراق، أي في القرن السابع الميلادي ، وأنه نقله عن ناسخ آخر اسمه (زازي برناطار) ، الذي عاش في ٣٧٠م، وهذا نقله عن نساخ آخرين عاشوا قبله بما يقارب القرنين من الزمان، أي في بداية التاريخ الميلادي، وهذا ما يجعلنا نتساءل عن العهد الذي ظهر فيه المندائيون كقوم وكدين ، أي في بداية عهد الميلاد أو قبله بقرن أو قرنين من الزمان.

أما حين نتناول الأبجدية المندائية ونتساءل : متى ظهرت هذه الأبجدية ؟ وما دواعي ظهورها؟ نتوصل إلى جملة حقائق، فنحن نعرف أن اللغة المندائية هي لغة آرامية شرقية، والآرامية في بدايتها هي لغة أناس بدو ، اسمهم الآراميون ،

هاجروا من شبه جزيرة العرب واتجهوا صوب سوريا والعراق ، وأسَّسوا دويلات صغيرة هنا وهناك ، ومنها دويلة اسمها (صبا) في دمشق ، دخلت في نزاعات وحروب مع اليهود بين ٨٠٠– ٩٠٠ ق.م بقيادة الإسكندر المقدوني ، وفرضوا على الشعوب حضارتهم وثقافتهم الهيلنستية ، كما فرضوا عليهم التحدث باللغة الإغريقية التي أصبحت هي اللغة الرسمية للدولة.

وبهذا طغت هذه اللغة على الآرامية ونافستها وأضعفتها فانحسرت ، واضطر الناس إلى التحدث بلغاتهم ولهجاتهم الخاصة التي أصبحت لهجات محلية اشتقت من الآرامية ، وتحولت تدريجيًا إلى لغات فلسفية ودينية ، ومن هذه الأقوام ؛ المندائيون الذين ابتكروا الأبجدية المندائية للحفاظ على استقلاليتهم ، وللتخلص من ضغط واضطهاد الفرس بعدئذ ؛ الذين حرَّموا على رعاياهم التحدث بأية لغة غير الآرامية.

إذن ؛ فاللغة المندائية قد مرَّت بأطوار بدأت في القرن الأول أو الثاني ق. م ، ثم اكتملت تدريجيًا بعد الميلاد ، وأصبحت لغة خاصة بهم منذ ذلك التاريخ ، حيث دونوا بها أدبهم المندائي ، وسجلوا ما مر بهم من حوادث واضطهاد ، ثم جاء دور الرومان ، خاصة بعد أن اعتنقوا المسيحية في القرن الثالث الميلادي ، حيث قاموا بإحراق وإتلاف جميع الكتب والمؤلفات التي تهاجم الأناجيل الأربعة أو التي تعادي المسيحية ، فقام المندائيون جراء ذلك ، ومن أجل الإبقاء على أفكارهم بتطوير أبجديتهم وتدوين كتبهم وأفكارهم المندائية بها ، وأول ما كتبوه هو العوذ والقماهات ، ومن مراجعة النقود والعوذ والقماهات وتذييلات الناسخين نستدل بأن الأبجدية المندائية ظهرت قبل القرن الأول الميلادي ، ثم اكتملت في القرن الثالث الميلادي.

ولدينا دليل آخر على ما تقول هو ماني وأفكاره المانوية ، فقد كان مندائيًا في بدايته ، ووصفهم في مؤلفاته وصفًا دقيقًا ، كما نقل ذلك ابن النديم والذي يسميهم بصابئة البطائح أو المغتسلة...

وقال ماني : إنهم يغتسلون عند الأكل ، ويغسلون أوانيهم بالماء الجاري ، ويتجهون إلى الشمال في صلواتهم ، ولا يتناولون لحوم أو أكل الآخرين ، وهذا وصف دقيق للصابئة ، ومما يذكر أن ماني ولد عام ٢١٢م ، وبعد ان أصبح عمره ٢٨ سنة ، أي عام ٢٤٠ ؛ انشق عن المندائيين وحرَّف تعاليمهم وكتبهم الدينية ، وأوجد له دينًا خاصًا ، ودخل معهم في صراع حاد ، وتركت لنا المانوية كتبًا أخرى تتحدث عن الفترة التي عاشها بين المندائيين عثر عليها في نجع حمادي تسمى (القبطية) ، وكراسة صغيرة أخرى في الغرب تتحدث عن الفئة التي تشبه المندائيين ، وفيها تسميات (صوبايي ، معمداني) ، أما أفكار (الشيتيين) فهي تتطابق بكل شيء مع الأفكار المندائية ، وهم ينتسبون إلى (شيت بن آدم) ، الذي يسميه المندائيون (شيتل).

ويتحدث عنهم أيضًا المؤرخ (ياقوت الحموي) فيقول عن أبناء (الطيب) إنهم من أبناء شيت بن آدم ، وأن شيت هو الذي بنى هذه المدينة ، ومن هذه القرائن كلها نصل إلى حقيقة معينة ، هي أن الصابئة ظهروا في فترة معينة محددة قبل المسيحية بقرن أو بقرنين ، وكثير من المعلومات تُشير إلى أن المندائيين خرجوا من مصر ، فهل من علاقة لهم بمصر ؟ مع العلم أن هناك جماعة ظهرت في مصر اسمها (هرمز الهرامسة) ، أي الحكماء في القرن الثاني ق.م ، وأفكارها مماثلة لأفكار المندائيين إلى حد بعيد ، وقد صيغت مبادئهم بلغة فلسفية ، لا بلغة شخصية ميثولوجية ، مما يذكرنا بصابئة حران ، الذين يقولون إنهم أخذوا معلوماتهم عن (عاذيمون) ، وهو اسم آخر لهرمز.

هنا تأتي مسألة أخرى : ما هي علاقة المندائية بالغنوصية ؟ والتي معناها (البحث عن المعارف) ، وهي عبارة عن محاولة لإيجاد جواب لعدة أسئلة : من نحن ؟ وكيف أتينا ؟ وأين نذهب ؟ وهي تساؤلات معروفة منذ أقدم العصور ، وتحتاج إلى أجوبة ، وإننا نلاحظ أن كثير من التراتيل المندائية تشبه هذه الأسئلة والغنوصية ظهرت في الشرق الأدنى ، وهي مزيج من أفكار عديدة ، بابلية شرقية وإغريقية ونادى بهذه الفلسفة (فيلون الإسكندراني).

والمسيحيون في البداية يقولون إنها مذهب مسيحي خرج تقرب من هذه الأفكار الأغنوصية ، ولهذا أطلق عليها الأغنوصية الشرقية ، تمييزًا لها ، عن الأغنصوية الغربية ، وأضافوا لها أفكارًا جديدة كالصراع بين النور والظلام والخير والشر ، تلك الأفكار التي انحدرت عن السومريين وتلقفها الزرادشتيون ، وطوروها فخرج من حصيلة هذه الأفكار مبدأ (التعميد) ، وهنا نقول : إن تقديس الماء كان شائعًا في أقطار عديدة تمتد من الهند حتى الغرب ، فكل الأقوام في الشرق الأدنى والأوسط مارست التعميد ونحن نعلم أن الدين المندائي فيه ثلاثة أركان هي البراخة والرشامة والصباغة ، فهل هناك أقوام كانوا يمارسون التعميد احتك بهم المندائيون وتأثروا بهم؟.

وهنا نتذكر (الأسينيين) الذين عاشوا مع قبائل البحر الميت ، وكانوا يصطبغون ثم يأكلون ويتجهون إلى الشمال ، ولكنهم كانوا يختلفون عن المندائيين في أنهم حرموا الزواج ، فهل كنا نحن المندائيون على علاقة مع هذه المجموعة؟ كما أن هناك مسألة جديدة تثار ، فهناك شخصية في التاريخ اسمها (الحسسة) ، هكذا يطلق عليها ابن النديم ، وأصلها (الكسايي) ، أي الخفي ، فهل هذه الكلمة تذكرنا بما نطلق نحن عليه (آدم كسيا) المندائية؟ ، أي آدم الخفي ، فالكراسة المندائية تذكر الصابئة وتقول : رئيسكم الكسايي عندما كان يعمدكم بالماء ، فهل قال لكم قدسوا الماء؟.

ويختم المحاضر محاضرته بالقول : العديد من الأمور تبعث على التساؤل وتحتاج إلى بحث علمي دقيق ، ونحن كمندائيين من أجل معرفة أصلنا ودِيننا ، وكيف تطورت أفكارنا ، ينبغي علينا استعمال العقل والمنطق ، والمقارنة والتسلسل العلمي التاريخي في دراسة تاريخنا ونشأتنا.

وللأسف أنه لن تجرى حتى الآن أية تحريات أركيولوجية في مدينة (الطيب) وكلما تابعنا هذا الأمر بروح جدية علمية عديدة ، ونستطيع تحديد أصنا وأصل أفكارنا ، ولماذا اعتنقنا هذه القيم؟ وإذا أردنا الاهتمام بهذا الموضوع ، علينا

إتقان المندائية أولاً، كما قال (نولدكه) و(لدزبارسكي) وسواهما، وإتقان اللغات الآرامية والعبرية والإغريقية لأن كثيرًا من الكتب ترجمت من الإغريقية وإليها في عصور الاهتمام باللاهوت، ونحتاج كذلك إلى مقارنات في الأفكار ودراسة الأدب المندائي دراسة فلسفية، وليس فقط فهم التراجم، بل المفهوم الفلسفي وما خلف هذا المفهوم وكذلك عملية الخلق.

إحياء اللغة المندائية... إحياء لرموز ثقافية جديدة

حوار مع الدكتور قيس مغشغش[1]:

تعتبر الديانة المندائية من الديانات التوحيدية وورد ذكرها في القرآن الكريم، وكثر الحديث عن أتباع هذه الطائفة في القرن الماضي، فألفت فيهم الكتب ونشرت البحوث والدراسات الأنثروبولوجية قام بها شرقيون وغربيون، وديانة هذه الطائفة الصغيرة (٧٠ ألف) التي تنتشر في العراق وإيران غير تبشيرية، كتابهم المقدس يطلق عليه" الكنزاربا" أي الكنز العظيم مدون باللغة المندائية وهي إحدى فروع اللغة الآرامية ومترجم إلى عدة لغات عالمية ومنها اللغة العربية.

الدكتور قيس مغشغش، أحد مثقفي هذه الطائفة الدينية، وهو واحد من القلائل من أبناء الطائفة الذين قاموا بتحقيقات ودراسات قيمة في ميدان الدراسات اللغوية السامية، وله معرفة واسعة بلغات حية كثيرة، وساهم بالعديد من الدراسات اللغوية، وهو من الداعين إلى إحياء اللغة المندائية، باعتبارها كائن حي تعرض للاستلاب، بعد أن حلت محلها لغة تنتمي إلى ثقافة وحضارة أكثر تقدمًا وحداثة، وقد أصدر في الآونة الأخيرة كتابًا تعليمًا مصورًا للكبار والصغار ولمختلف الثقافات والانتماءات القومية والدينية؛ لتعليم اللغة المندائية باعتبارها رمز ثقافي له مكانته الكبيرة في التكوين الثقافي لأي مجتمع من المجتمعات، التقيناه وكان لنا معه هذا الحوار:

*** يقال إن لا حياة لأمة بدون لغة، فهل ينطبق هذا على المندائيين؟**

– هذا صحيح، فاللغة أحد المقومات الأساسية لأية أمة، والمندائيون أمة تميزت بابتكار لغة خاصة بها وذلك دليل على عدة جوانب منها: كبر حجم أمتهم ما جعل لغة خاصة بهم حاجة تتطلب الابتكار، غنى تراثهم وتنوعه بما لم

١- حاوره من روما: موسى الخميسي من روما

تستوعبه لغة من اللغات السائدة في مناطق تواجدهم ، القدرة الابتكارية للمندائيين في وضع لغة خاصة بكل ما تتطلبه اللغة من أبجدية ومفردات وأصوات وقواعد ، خصوصية المندائية والمندائيين في ديانتهم وأدبهم وتراثهم ، التعايش المجمع والموحد للمندائيين بحياة تفصيلية ما تطلب التخاطب بلغة خاصة ، وقد كانت المندائية حية وحيوية بلغتها ، وبفقدها اليوم تفقد عنصرًا مهمًا من عناصر الديمومة وشد اللحمة والارتباط بالأصول قدر الإطلاع عليها بلغتها التي دونت فيها لتكون أكثر تأثيرًا في الوجدان والعاطفة.

*** يقول علماء اللغة إن ٣٤٠٠ لغة في العالم ستختفي في جميع أنحاء العالم خلال فترة ٥٠ سنة القادمة، هل تعتقد أن اللغة المندائية ستكون واحدة منها؟**

– من بين أكثر من ٦٠٠٠ لغة في العالم فإن هنالك أعداد كبيرة منها معرضة اليوم للانقراض ، وهذا راجع إما إلى زوال وانقراض صفة المجموعات والشعوب التي تتحدث هذه اللغات ، أو انسحاب بعض اللغات إزاء سيادة لغات أخرى ، وهذا ما حصل ويحصل للغة المندائية التي انسحبت من لغة سكت بها العمل النقدية في زمن أوجها إلى لغة لا يتحدث بها اليوم أكثر من ١٠٠ فرد.

*** ماذا يستوجب هذا الأمر؟**

– إن هذا الأمر يستوجب العمل في مجالين أساسيين؛ الأول: مجال الأمة ذاتها، وتحديدًا هنا المندائيون أنفسهم ، فقد انسحب المندائيون تدريجيًا عن لغتهم بسبب سيادة اللغة العربية وبسبب عيش المندائيين غير المحدد ببيئة جغرافية معينة أو خاصة بهم ، مما يمكن أن يحافظ على لغتهم من خلال دوام التحدث بها ، وكذلك من حرص المندائيين على المعايشة مع المجتمع الأكبر الذي أصبحوا يعيشون فيه ويتعاملون معه كاسبين وده لضمان البقاء ، كل ذلك جعل المندائيين يتقنون سريعًا اللغة العربية بلهجتها العراقية دون تميز أو لكنة ، ثم جاء الانتظام في التعليم الرسمي ولغته العربية ، وقد تميز المندائيون في اللغة العربية شأن تميزهم وتفوقهم التعليمي مما شكل الضربة القوية للغة المندائية ، فقد غدا المتعلمون في الأمة المندائية ومثقفوها ؛ بنتيجة الانشغال عن اللغة المندائية ،

أميون في لغتهم الأم، وهكذا خسر المندائيون أن يحفظ ويطور الجيل المتعلم هذه اللغة، مثلما طور علوم ومهن كثيرة وتميز بها... إذن، إن مجال إحياء اللغة يتعلق أولاً بالأمة ذاتها وبخاصة المتعلمون والمثقفون والواعون، ومع أن سبل الإحياء اليوم صعبة وكثيرة ومتنوعة؛ إلا إنها مازالت ممكنة.

أما المجال الثاني، فهو الإسناد الدولي المتخصص؛ فقد أدركت منظمات دولية وأكاديمية وإنسانية عديدة أهمية اللغات التي ابتكرتها أمم وشعوب العالم واعتبرتها إرث إنساني يستوجب المحافظة عليه، وقد سعت هذه الجهات إلى تحديد اللغات المهددة والمعرضة لخطر الانقراض وبدأت بمشاريع توثيقها، بل والمساعدة على ديمومة التحدث بها، وقد سعيت شخصيًا لهذا الأمر من خلال مخاطبة منظمة اليونسكو وكذلك جمعيات أكاديمية أخرى، لتسجيل اللغة المندائية واحدة من اللغات المعرضة لخطر الانقراض، علمًا أن الأمر يتطلب جهود ومتابعة من المعنيين المندائيين.

*** إذن، هل من سبيل لإحياء اللغة المندائية؟ وما هي متطلبات ذلك؟**

– نظريًا نعم... أما الجانب العملي فهو يعتمد على المندائيين أنفسهم، فقد أحيت دولة إسرائيل اللغة العبرية رغم تعدد قوميات ولغات اليهود، أما أهم متطلبات عملية الإحياء فهي الرغبة والدافع لدى المندائيين لأن يتعلموا لغتهم، وهذا واقع ويمكن استثارته من خلال حاجة المندائيين لإثبات هويتهم الخاصة، وأنهم سلالة أمة موجودة، وكان لوجودها اعتبار وقيمة تحملت من أجله الكثير وظلت حتى اليوم تعيش التطور والتقدم دون أن تتقوقع أو تتخلف أو تزول، فهي حقًا تستحق الإكبار والمكافأة، والمكافأة هي أن نكافئ نحن أنفسنا باعتزازنا بهويتنا المندائية، وأبرز سمات الهوية؛ اللغة الخاصة وهي موجودة ولا تتطلب ابتكار.

يبنى على ما تقدم ضرورة توفير الدعم لوضع المناهج التعليمية وأدواتها ووسائلها، من كتب وبرامجيات وتقنيات، ثم إعداد بعض الكوادر التعليمية وهم– فرواه ماري– كثيرون ومشهود لهم في ميدان التعليم.

ومع أن توزع المندائيين اليوم في بلدان المهجر قد زاد من تعقيد هذا الأمر، إلا أن استخدام تقنيات الإنترنت وغرف المحادثة والبرامج الكمبيوترية يمكن أن يستغل بشكل فاعل، على أن هذا الأمر يتطلب جهة متخصصة تحرص على متابعته، وقد كانت لنا فكرة اعتماد رابطة تجمع المتخصصين والمعنيين باللغة المندائية بمن فيهم أكاديميون غير مندائيين، وبهذه المناسبة فإنا نطلق دعوتنا لتشكيل مثل هذه الرابطة لتكون جهودها متخصصة وتنفيذية ملموسة.

*** هل تحتمل اللغة المندائية استنباط كلمات ومفردات جديدة، وكيف لها مسايرة متطلبات المعاصرة في حياة تعصف بها رياح التقنيات الحديثة وأحادية اللغات العالمية؟**

– أما عن الشقِّ الأول، فالإجابة نعم، تحتمل اللغة المندائية استنباط كلمات ومفردات جديدة بحكم أن اللغة المندائية تقوم في مفرداتها على الفعل أساسًا لاشتقاق الكلمة، فليس التلفاز في اللغة الانجليزية والألمانية أكثر من "المشاهدة عن بعد"، وبالمندائية يمكن اشتقاق كلمة له من الفعل "هزا" بمعنى شاهد ليكون "هزوانا" مثلاً، وبعد أن يوضع في الاستخدام يشيع فيعتمد وهكذا، علمًا أن اللغة العربية، على غنى مفرداتها، قد عربت كلمة تلفزيون على تلفاز، وهذا مدخل آخر في الاستنباط.

أما مسايرة متطلبات المعاصرة، فإن العولمة التي يراد لها أن تدق وتطحن خصوصيات الشعوب والأمم لصالح قطب أحادي، فإنها تسعى لتفوق لغة واحدة بما يجعل اللغات الأخرى خجلة أمامها من حيث مفرداتها أو تعزيز انتشارها، ونحن اليوم نفكر فقط في كيفية المحافظة على اللغة المندائية إذ أن التحدث، وهو من أهم مقومات حياة اللغة، لا يتم إلا من خلال التواجد المشترك والتفصيلي وهذا ما لا يعيشه المندائيون اليوم حتى في وطنهم الأم، علمًا بأن هناك لغات عريقة وواسعة الانتشار ولها مقومات الإسناد، ومع ذلك فهي تتهم اليوم بأنها ليست لغة علم أو تكنولوجيا، كما هي اللغة العربية ولغات البلدان الإسكندنافية.

*** يقال إن أحد رجال الدين المندائيين كان يتراسل مع المستشرقة الانجليزية الليدي دراور باللغة المندائية ، فهل تعتقد أن أبناءنا المندائيين يستطيعون مستقبلاً كتابة رسائل فيما بينهم باللغة المندائية؟**

– كِلا المرحومين الكنزابرا الشيخ دخيل الشيخ عيدان والكنزابرا الشيخ نجم الشيخ زهرون كانا يتخاطبان مع الليدي دراور باللغة المندائية ، وقد اطلعت على إحدى هذه المخاطبات والتي أحتفظ فيها بنسخة بخط يد الليدي دراور باللغة المندائية ، كما أن تذييلات الكتب الدينية وإلى عهد الكنزابرا المرحوم الشيخ عبد الله الشيخ سام تكتب باللغة المندائية ، وفيها يتم تدوين الوقائع التاريخية والحياتية المهمة في عصر الناسخ. ولا شك بأن تحدث المندائيين في إيران وتخاطب البعض منهم باللغة المندائية على ما يداخلها من مفردات ولكنة فارسية هو مدخل مهم وأساسي في عملية إحياء اللغة المندائية إن عزم المندائيون على ذلك ، وعلى هذا فإني على يقين أن بإمكان أبناءنا وشبابنا – إن رغبوا– كتابة رسائل فيما بينهم بالمندائية ، وقد بدأ البعض منهم فعلاً مخاطبتي بجمل مندائية ، وليس هذا الأمر بكثير ، فقد تعلم حتى الكبار منا لغات بلدان المهجر التي أصبحنا نعيش فيها ، علمًا بأن تعلم اللغة المندائية عملية سهلة فهي لا تختلف عن العربية التي نتقنها جميعًا من حيث الأسس ، بل وحتى في الكثير من المفردات التي سيتفاجأ المندائي بدرجة تشارك اللغتين فيها ، ذلك أن الأساس واحد وهو اللغة الآكدية أم اللغات السامية.

*** لماذا يصر رجال الدين المندائي على استخدام اللغة المندائية في ممارسة الطقوس الدينية ويهملون تداولها في الحياة اليومية؟**

– أخي موسى ، ما أبقى حياة في اللغة المندائية لحد الآن هو اعتمادها لغة وحيدة في كتابة النصوص الدينية والأدب المندائي ، والمندائيون رغم تخليهم عن درس فقه الدين المندائي بسبب ظروف الاضطهاد والمعاناة التي تعرضوا لها ، فإنهم لم يتخلوا عن ممارسة طقوسهم الدينية ، وبما أن جميع هذه الطقوس تقوم على القراءات الدينية المصاحبة للمراسيم الأخرى ، فقد أوجب ذلك على

رجال الدين ضرورة اعتماد اللغة المندائية التي بدونها لا يتم الطقس، خاصة وأن من القراءات ما يجب أن يكون جهرًا، ولقد ظل عدد من رجال الدين وبعض المتعلمين إلى عهد قريب يتحدثون اللغة المندائية حتى طغت اللغة العربية على تخاطبهم أيضًا بأسباب عدم تواجدهم متلاقين متخاطبين وانشغالاتهم الحياتية التي أحدثت تركًا للغة، ومعلوم أن ترك اللغة يؤثر في قدرة التخاطب بها ويضعفها وهو ما حصل لدى أغلب رجال ديننا، ونحن نتمنى عليهم تكثيف درس اللغة حتى يكونوا عامل جذب وتشجيع للآخرين بل وفي مقدمة المساهمين في إحيائها، وهنا يسرني أن أشيد بالجهود التي بذلت من قبل الترميذا الشيخ سلام غياض في ستوكولم/ السويد لاستحصال الموافقات لاعتماد اللغة المندائية لغة أم وتدريسها وفق منهج معد لأبنائنا المندائيين في مدارسهم النظامية، مع الأمل بالتعميم والدعوة للحذو في جميع بلدان تواجد المندائيين.

*** ما قصة الحرف المندائي، وهل من سبيل لوضعه في الخدمة الكمبيوترية شأن حروف لغات العالم الأخرى؟**

– الحرف المندائي حرف جميل رغم قدمه وعدم السعي لتطوير شكله بسبب نصوص تقديس المندائيين لحروف أبجديتهم حفاظًا ألا يمسها تغيير أو ترك وقد نجحوا بذلك، لقد زاد من جمالية الحرف إمكانية ربطه من اليمين واليسار مع وجود خمسة حروف لا تقبل الربط من اليسار، وبهذه الميزة يمكن إجراء تكوينات تشكيلية في الخط المندائي بما يشابه التشكيلات في لوحات الخط العربي التي أصبحت فنًا بحد ذاتها، ويمكن بهذا الخصوص الإطلاع على نماذج قمنا بها ومماثلتها أو تطويرها من قبل الفنانين المندائيين كمدخل آخر للاعتزاز والإحياء، أما عن وضع الحرف المندائي في الكمبيوتر فقد تمَّ القيام بذلك بشكل محدود جدًا من قبل بعض المندائيين، ولأغراض طبع كتابي، فقد قمت بتصميم ثلاثة أنواع للخط المندائي هي " زازي، شكندا، وهيونا" وهو تخليد لأقدم وأبرز ثلاثة ناسخين مندائيين، وهناك اليوم مخاطبات مع بعض

الجهات الأكاديمية لوضع ثلاثة خطوط مندائية أخرى بحسب نموذج الكتابة اليدوية لكل من "ليدبارسكي/ عالم الساميات الألماني الكبير ومترجم كتاب الكنزاربا إلى الألمانية، والليدي دراور الغنية عن التعريف، ورودولف ماتسوخ باحث اللغات المشترك في وضع القاموس المندائي" تقديرًا لجهودهم المتميزة في خدمة المندائية... والعمل جار من قبلنا لتسجيل حقوق هذه الخطوط من أجل وضعها في خدمة المندائيين والخدمة الكمبيوترية عامة.

*** وهل سيساعد ذلك في إمكانية استخدام الكمبيوتر لتعليم اللغة المندائية؟**

– لا شك أن ذلك سيعد أحد الإسهامات، خاصة وأن البرامج الكمبيوترية أصبحت اليوم من أكثر البرامج التعليمية فعالية، فهي وسيلة فردية وجماعية ويمكن أن تعتمد الصوت والصورة والحركة، فإذا ما تمَّ بناء برامج تعليمية وفق مبادئ التعليم المبرمج فإن ذلك سيساعد أبناءنا في تعلم لغتهم، والحقيقة أني قد قطعت شوط في بناء برنامج تعليمي من هذا النوع إلا أن هناك مشكلة تقنية تتمثل في تحويل برنامج "البور بوينت" الذي اعتمدته إلى أسلوب عرض اعتيادي يستقبله أي كمبيوتر، وأنا أطلب مساعدة شبابنا المتخصص لحل هذه المشكلة وتسهيل إنجاز هذا العمل الذي يمكن أن يكون بين أيدي عامة المندائيين قريبًا.

*** هل تعتقد أن كتابك القيم في تعليم المبادئ الأساسية للغة المندائية يصلح كمنهج تدريسي للصغار والكبار على السواء في داخل البيئة العراقية وخارجها؟**

– إن كتاب "أتعلم المندائية" الذي قمت بوضعه؛ يصلح كأساس لتعلم اللغة المندائية قراءة وكتابة، لقد تمَّ بناؤه على وفق أسس التعليم الصحيحة للمرحلة الأولى في اكتساب اللغة، وهو منهج موجه من حيث مستواه الأولي وصوره إلى الأبناء الذين نسعى أن يقدموا على تعلم لغتهم الأم، كما أنه يصلح لكل من يسعى للبدء بتعلم هذه اللغة على اختلاف مراحلهم العمرية، ولذلك فقد أقرت جامعة برلين الحرة اعتماده لتعليم اللغة المندائية لطلاب قسم الدراسات السامية،

كما طلبت نسخ منه جامعات عديدة لحد الآن مثل: جامعة هايدلبرغ وجامعة كوتنكن في ألمانيا، جامعة لندن، جامعة لايدن في هولندا، جامعة هلسنكي في فنلدا.

وتأسيسًا على هذا المستوى يمكن وضع المستويات الأخرى بما تتطلبه من نصوص وتمرينات وقواعد... وهكذا، والأمل معقود على كل من له معرفة وقدرة للاشتراك في لجنة متخصصة لهذا العمل، ولنا شرف التعاون مع الجميع خدمة لهذا المجال الحيوي من مجالات المحافظة على المندائية وبقائها...

ذاكرة الكتابة... صياغة العقائد :

كتب د. مالك المطلبي في مقال له:

حتى دخول الموضوع لابد لي أن أجتاز ثلاث عتبات كلامية؛ عتبة العقيدة، وشعيرة التعميد، والحب والكرامة.

عتبة العقيدة:

كان الجسر الذي يعبر نهر "المشرح" خشبيًا في مبناه الأول، ثم تطور بعد ذلك؛ شركة عملاقة وضعت حديد وآليات وبكرات ضخمة وأسلاك مفتولة وخباطات تدور دورانًا حلزونيًا وسط شجر الغرب، ثم رحلت بعد أن باضت جسرًا إسمنتيًا من غير أن يترك مكانها أي أثر صناعي في الجلد الريفي.

يُقسم الجسر البلدة كظاهرة جغرافية في السطح، غير أنه يقوم في حقيقة الأمر بتقسيمات سياسية وأيديولوجية، فعلى ضفته الشمالية التي يدخلها طريق ملتوي يربط بلدة المشرح بمركز متصرفية العمارة، يقطن الحاكم ومؤسساته: مبنى الإدارة المحلية ومركز الشرطة، والمستوصف الطبي ودائرة البريد ودائرة النفوس ونادي الموظفين... الخ.

أما ضفته الجنوبية فيقطنها المحكومون ودورهم وأسواقهم ومعابدهم، غير أن الجسر سرعان ما يُرسل بعد عبوره إلى الجنوب إشارة أخرى: إذ يمثل الحدود الفاصلة بين عقيدتين؛ عقيدة الإسلام وعقيدة الصابئة.

ففي حين يقطن المسلمون في الغرب من الجسر يقطن الصابئيون في الشرق منه، هذا الفصل الديموغرافي إشارة إلى تحريم الاختلاط بين الفريقين، يتفق المسلمون والصابئيون على اعتبار الاختلاط اللمسي بينهما أحد المحارم الكبرى، وقد كنت أرى وأنا صبي الشيخ "كثير" شيخ الصابئة يزور أبي (وهو المرجع المحلي العملي لمسلمي ناحية المشرح وما يتبعها من قرى)، كنت أرى كيف يحيي بعضهما بعضًا: توضع اليد اليمنى لكل منهما على الصدر، يصحب

ذلك تمتمة بكلمات تحية ناقصة وإحناء الرأس، هذه الإشارات التبادلية كانت في واقع الأمر لتأكيد ممارسة قطيعة اللمس بينهما.

يسمى أحد أعياد الصابئة رسميًا بـــ(دهوا ربا) ، وشعبيًا بـــ(الكرصة) أما الكرصة فهي من الكَرس أو الكِرس؛ وهي كلمة سامية الأصل، تحتفظ العربية ببعض مدلولاتها الأولى كالتجمع أو التراكم أو الاعتكاف، ومهما يكن من أمر ففي هذا العيد تحجر العقيدة الصابئية على أتباعها جميعًا داخل منازلهم، يصبح فضاء الأخر شيطانيًا، ولهذا يلوذون منه كي لا يدنسهم، إنه نوع من التطهير بوساطة الاحتجاب.

في هذه الشعيرة يأتي شقاة الأولاد من جهة الغرب، الجهة الإسلامية: ليتجولوا في بيوت الصابئة في وضح النهار ، تحت أسماع المحتجبين وأبصارهم ! ليحملوا أي شيء ترك في فناء الدار المكشوف، يرى المكرسون الأيدي تمتد وتعبث في أرجاء البيت من غير أن يأتوا بحركة ما، لأن أية حركة تؤدي إلى انكشاف المحتجب وهذا يعني أنه سيكون برؤية "الآخر" له أو لمسه نجسًا ، تمكنت من اصطياده حبائل عش الشيطان.

إن ثمن التطهير هو فقدان جزء من أثاث البيت ومتاعه، مما لا يمكن أن يخبأ في الحجرات الموصودة بالعقيدة، مرة كنت ضمن عصابة فتيان اقتحمت بيت أحد الصابئة في عيد "الكرصة" وكان على رأس هذه العصابة أحد (شقاوات) العنف واسمه "عبيد"، حين دخلنا ربعة الدار فاجأنا خوار بقرة، يبدو أنها جفلت من دخول هذه المخلوقات غير الأليفة ، درنا في أرجاء البيت فلم نجد شيئًا يذكر، حينها عمد "عبيد" إلى البقرة ففك رباطها وبدأ يقودها، مصدرًا أصوات استدعاء البقر خارج البيت ، عند ذاك جاء الصوت من اللامكان... صوت زلزل كياني أنا في الأقل: (أعرفكم واحد واحد، ابن رمضان وابن كاظم الخفي وابن شعيع وابن حجي يوسف "هذا هو أنا"، ومضى يعدد الأسماء الواحد تلو الآخر، غدا سأسحبكم في مركز الشرطة ونشوف ماذا يفعل آباؤكم).

كان الصوت يعدو فوق هربنا إلا "عبيد" الذي توقف ليقلب العرض: البقرة أو الفضيحة والسجن، ويبدو أنه اختار أهون العقوبتين؛ ترك البقرة تخور ولحق بنا وهو يلهث.

في السنين الأخيرة ضرب أحد مدراء الناحية طوقًا من الحراسة حول بيوت الصابئة، فوضع بذلك حدًا لتسلل الصبيان من عقيدة إلى أخرى، هكذا كان الجسر خطًا أحمر، يفصل بين عقيدتين، غير أنه كان في الوقت ذاته علامة اختلاط عند العبور، في العبور إلى أشغالهم وأعمالهم يصبح اختلاط البشر كالأمر الواقع الذي تتقلص فيه دائرة نفوذ الانفصال العقائدي المقدس، إنه جزء من قوانين الكائن البشري وموضوعاته بكونه كائنًا حيًا حرًا فريدًا، لا بكونه كائنًا أيديولوجيًا جمعيًا تنسجه منظومة قيم مقدسة.

عندها تضع العقيدة هذا الاختلاط في منطقة موارية من وجوده ثم تنساه! غير أن كلتا العقيدتين تعوض هذه المواربة بتأكيد قدسية الانفصال بعد عبور الجسر! هناك منطقتان أخريان مواربتان تنتهكان قواعد تحريم الاختلاط؛ منطقة "العمل" ومنطقة "التعليم".

في منطقة "العمل" أو ما أفضل أن أسميه الإرغام الاقتصادي؛ يلمس المسلمون والصابئون بعضهم بعضًا، يصنع الصابئي الزورق فيستأجره المسلم أو يشتريه لأغراض النقل أو الصيد (صيد السمك)، حينئذ تحدث الملامسات المكانية بينهما ! آثار أنامل الصابئي ويده التي تدق وتنشر وتطلي، وعرق جبينه الذي يقطر فوق قطع الخشب، يصبح ملاذًا لأنامل "المسلم" ويده التي تمسك بالمردي، وجسده الذي يحتويه حوض الزورق، كما أن طبعات أصابع الصابئي على الذهب تلامس طبعات أصابع المسلم عليه حين يشتركان معًا في لعبة الصياغة واستهلاك الصياغة، وهكذا يتم اللمس بوساطة الاقتصاد.

يدخل المسلم والمسلمة المدرسة فيعلمهما الصابئي والعكس بالعكس، هنا يتبادلان اللمس كأخوين منفصلين أحدهما كبير والأخر صغير، كان الأستاذ

سامي فياض الصابئي، معلم الانجليزية حين يضع يده على كتفي يجعلني أحس بنشوة الكمال! منذ الطفولة تجذر "العقيدة" وجودها في تربة العقل، تزرع قيمها بأناة وصبر ، مستخدمة جميع الوسائل الإرغامية التي ستبدو في ما بعد اختيارية، تنبت العقيدة كالأعشاب البرية داخل العقل، ومع مرور الوقت يأخذ العقل وصورة العشب البر الذي لا ترعى فيه سوى التعليمات المقدسة التي تعد الحيدة عنها وقوعًا في حبائل الشيطان! تصبح العقيدة مرآة الوعي التي لا توجد خارج حدودها أية صورة للحياة!.

عام ١٩٥٥ تلقى مدير بريد المشرح "رحيم زيدان" برقية تنبئ عن وصول وزير الداخلية "سعيد قزاز" على رأس وفد كبير بلدة المشرح في غضون يومين، كان هذا حدثًا زلزاليًا، إذ أن رؤية مدير الناحية ومعاون الشرطة وهما يسيران من بيتهما نحو مباني الإدارة المحلية تعد نوعًا من أنواع الفرجة، حيث يتجمع جمهور متنوع لمشاهدة هذا العرض ، بل تعد زيارة حاكم المقاطعة (متصرف اللواء) الذي لا يبعد مركز عمله عن بلدة المشرح سوى عشرين كيلومتر حدثًا تاريخيًا ، تعاد به صياغة البيئة النفسية والاجتماعية والهندسية لتلك البلدة، فما بالك الآن بمجيء وفد ليس حاكم المقاطعة أو متصرف اللواء، سوى أحد أعضائه؟.

وهكذا انشغل الناس عن هدف الزيارة بالزيارة، أقيمت الاستعدادات على قدم وساق! وصدرت أوامر إدارية (لا أزال أحتفظ ببعض وثائقها) بتشكيل لجان الزيارة : لجنة التنظيف والتزيين ولجنة تصنيف المستقبلين ولجنة التجمهر واللافتات ولجنة الخطب، وإن أنسى فلا أنسى تلك اللافتة الملونة الطويلة التي ملأها الخط من أقصاها إلى أقصاها : (عاش جلالة الملك المعظم فيصل الثاني ملك العراق، طائفة الصابئة المندائيين ترحب بمعالي وزير الداخلية الأستاذ سعيد قزاز والوفد المرافق).

كنت في الصف السادس الابتدائي حين رأينا من نوافذ الصف كتلة لا يمكن تحديدها تتحرك نحونا، وبحركة مفاجئة، مستمدة من احتياطي الاستعداد لهذه اللحظة، أجلس معلم الدين واللغة العربية الأستاذ محمد جعفر الطالب الذي كان يقوم بشرح الدرس ووضعني بدلاً منه، كنت أحمل امتيازًا لغويًا وراثيًا، إذ كان أبي واحدًا من علماء النحو المتأخرين، ومؤلف مخطوطة "القواعد الضمنية في الاجرومية العربية"

– بعث الله نبينا محمد...

قاطعني المعلم بصوت آمر قصير خافت:

– انتظر حتى يصلوا!

كنت قد تجمدت وسط الصف، غير أن جانبي الأيمن كان يحس بتقدمهم من غير أن يكون بمقدوري تحديد ملامح بشرية ما، بدوا وكأنهم من خارج كوكبنا الصغير، المشرح، بل من خارج الكواكب الكبيرة مدريد ولندن وباريس التي كنا نسافر إليها عبر خرائط درس الجغرافيا!

لمحت شرائط حمراء تسيل على أكتاف بعضهم (عرفت في ما بعد أنه آمر حامية المقاطعة)، ولمحت صورة "الأنكر" في زي بعضهم (عرفت في ما بعد أنه قائد القوة النهرية لمركز المقاطعة) ثم يا لأعاجيب الدنيا! رأيت وأنا أرفع رأسي أقوى رمز لسلطة الخوف على الإطلاق، مدير مدرستنا الأستاذ "رشيد الإمام" وهو يسير في الخلف... الخلف البعيد! دخلوا الصف، التقت عيناي بعيني المعلم! وبشعاع من عينيه وابتسامة المستجيرة، وهزة خفيفة من رأسه أرسل إلي إشارة البدء:

– بعث الله نبينا محمد إلى قريش في مكة يدعوهم إلى الإسلام، فآمن بدعوته أول الأمر نفر قليل، وكفر بها الكثير، كان الكفار قد سعوا إلى القضاء على الدعوة في مهدها، كان الكفار...

– هل في المشرح كفار؟

كان وزير الداخلية أو هذا ما كنت أظنه في تلك اللحظة قد انحنى علي، أجبت من غير أن أرفع رأسي:

– نعم!

أدار الوزير رأسه ونظر إلى من خلفه، ثم عاد إلي بوجه تشوبه ابتسامة منتظرة:

– نعم؟

أجبت:

– نعم...

– يوجد كفار في المشرح؟

هززت رأسي إيجابًا، سأل:

– الآن؟

هززت رأسي إيجابًا:

– من؟

– الصبة!

كأن الوفد والمرافقين والمستضيفين بالونة انفجرت! جلجلت ضحكة وزير الداخلية في أرجاء الصف، أسندتها ضحكات طليقة حوله! وأمامي انفجرت ضحكة معلمي، ثم رفع الوزير رأسه متجولاً بين الوفد ثم أعاده إلي وهو يقول بين أجزاء الضحك:

– من؟

– الصبة!

اختل النظام الحديدي للاستقبال! الآن بدأ الجميع بشر مثلنا، ربت الوزير على كتفي وصافح معلمي بحرارة وامتنان ثم غادر وسط تشنجات ما تبقى من الضحك! ومعلمنا يقف على عتبة الصف محييًا، حين استدار نظر إلي مليًا، ومن غير أن تغادر الابتسامة شفتيه، قال:

– سودت وجوهنا!

في اليوم التالي بدا لي أن معلم الانجليزية الأستاذ سامي فياض، "وهو صابئي" وكان المثل الذي كنا نحلم بأن نكون؛ مستاء مني، كان ينظر إليِّ من طرف عينه كلما حانت منه التفاتة نحو اتجاهي! رفعت يدي:

– أستاذ...

نظر إلي من غير أن يأذن لي بشيء...

– أستاذ... ما معنى وزير الداخلية باللغة الانجليزية؟

صفن طويلاً ثم قطب جبينه واستدار إلى السبورة وكتب بخط عريض mankind نقلت هذا في كراستي، بعد سنتين تلقيت مغزى الإشارة التي بعث بها إلي!

* * *

ونعود إلى جسر الأضداد الذي كان يجمع بين العقيدتين في أثناء العبور، ويفرق بينهما ما بعد العبور! لنراقب من فوقه شعيرة التعميد...

شعيرة التعميد:

الماء! الذي جعل منه جسد الإنسان الأول ما قبل العقائد؛ غضًا نقيًا شفافًا، صار نداءه الكلي العميق، كلما احتواه البر وشعر أنه تلوث وعرق وأغبر وفسد، عاد من فوره إلى دورة الطهر الجاري! هكذا عاش العراقي القديم المسمى بالسومري، كلما لوثه البر طهره النهر! لم يكن يتجه إلى الآلهة المتناثرة حوله، بل إلى تلك الدفقة المتناثرة حوله، بل إلى تلك الدفقة المنسكبة في تعاقب أبدي، كناية عن الروح المفقودة! كلما لوثه البر طهره النهر! ليعود إلى رئتيه من جديد، "وماذا يفعل وقد وضع في الخانة الأخيرة من الوجود" كان خلقه بريًا حسب، ليس مائيًا ولا برمائيًا.

تقول أساطير المشرح: "الإنسان كان سمكة ثم عوقب فصار سلحفاة، ثم عوقب فصار إنسانا"، تعكس الأسطورة تماهي الإنسان بالماء قبل العقاب، فالسمكة في النهاية ليست إلا موجة ماء لها غريزة! ثم بدأ العقاب بشطره نصفين: مُليء أحداهما بالكتلة والثقل البري، وترك النصف الآخر خفيفًا في الماء، ثم قذف بالعقاب الثالث نهائيًا نحو البر!

على ضفاف السومريين تشكلت لدى الأول، في ثنايا روحه غدة الماء! هذا جوهر التعميد! والفرق هو في تحول التطهير المادي والنفسي إلى تطهير رمزي، صرنا بإزاء فعل طقسي، لا يطهر فيه الماء الجسد، بل يطهر العقل والروح من الخطيئة.

من على الجسر في الشتاء القارس، إذ تتجمد حواف النهر، كنا نراقب مشهد التعميد الصابئي، ينزل المعمد المتعاقدين على الزواج بثياب عرسهما في الماء، وهو يأتي بحركات غريبة للرأس والجسد والذراعين، كانت القشعريرة تدب تحت جلودنا، حين نراهما يتواريان تحت جلد ماء النهر، والمعمد يطش الحبب المتدفق فوقهما، ثم يغطس يديه فيرفعهما كما يرفع ريشتين لامعتين، يتكرر هذا التواري والظهور سبعًا: (ندرك الآن أن العدد سبعة رقم طقسي يعلن تكراره في البنيات الرمزية الشرقية عن ذلك بجلاء).

أما داخل حدود العقيدة الإسلامية فلا نرى التعميد وقد اختفى وحسب، بل نراه كشعيرة بدائية، ومع مرور الزمن ينظر إلى شعائر عقيدة أخرى كجزء من الترتيبات الميثيولوجية التي تجلب الحيرة والاستغراب والدهشة! لكن ما أن تكون الشعائر جزء من عقيدتك وتنمو فيك؛ حتى تراها أليفة كحركة يد تؤدي التحية وهي تمس الصدغ أو توضع على الرأس أو الصدر! هكذا تتصلب العقائد حول نواها! ليظهر هذا في أشكال زيها وتحيتها وزواجها وطعامها!

أدار المسلمون ظهرهم للنهر باعتباره مكان التطهير الرمزي، الجسد الإسلامي حين ينزل إلى النهر يكون قد تحرر تمامًا من فكرة التطهير المقدس "التعميد"

إنه مجرد مجرى لنزهته فقط! كثيرًا ما سألت نفسي حين ينتهي مشهد التعميد "لمَ يفعلون ذلك بالله؟" في أخر المطاف تلقيت الجواب؛ الحب والكرامة.

هذه مسكوكة تحية عربية قديمة، تصادف قارئ الحكايات العربية في كل منعطف منها! "حبًا وكرامة أو حبة وكرامة"، دخلت هذه التحية في بداهتنا على أنها تعكس ما ألفناه من دلالة الحب والكرامة، ولم يكلف أحد منا عناء السؤال عما يربط في هذه التحية بين الحب والكرامة! فإذا سأل وجد الأمر غريبًا، فالتناسب بين الحب والكرامة معدوم أو يكاد، ولا سبيل إلى إعادة اللحمة بينهما إلا بالعودة إلى أصل اللفظتين قبل أن يستقرا في تجاورهما هذا.

لا يعني الحب في خطاب التحية ذاك الحب بمعناه المألوف، وهو النزوع العاطفي، بل يعني الخابية، خابية الماء الكبيرة التي تصنع من الطابوق كمرشح للماء، كما يستعمل قعرها كمقطر له، أما الكرامة فمعناها هنا غطاء الخابية، ولما كان تداول الحب عندنا بمعنى العزة هما السائدان، صرنا نتعامل معهما بمقتضيات الوضع، وهكذا يكون معنى التحية: سأبذل لك كل شيء: الحب وغطاءه! ليحل التناسب محل اللا تناسب، وتعود للجيرة حقوقها!

الآن سوف تلتقي العقيدة بالتعميد، ويلتقيان بالحب وغطائه ليكون ما حدث أقرب إلى الخيال منه إلى الواقع: كنا في شهر مايس "مايو" من عام ١٩٥٥ أواخر العام الدراسي، ثم ترتفع حرارة الجو وينتشر لفح الشمس فيسخن الهواء ويعرق الجلد وتتيبس الشفاه وينفطر اللسان وتجف الحنجرة!

كانت الحصة الأخيرة، تُشير عقارب الساعة إلى الحادية عشرة وخمس عشر دقيقة، العقربان متجهان إلى الساعة الثانية عشرة، نقطة تعامد الشمس في السماء! دق جرس المدرسة مخيفًا طويلاً كأنه لا ينتهي! وهرع الجميع مسرعين إلى صفوفهم، تسوقهم عصا الألم التربوي؛ العصا المكتنزة القصيرة، التي تتمايل بيد الأستاذ رشيد الإمام مدير مدرسة المشرح الابتدائية للبنين.

تخلفت عن المسير إلى الصف؛ إذ صعد على شفتي ولساني ظمأ مفاجئ، يسمى هذا في الدراما القدر التراجيدي، ظمأ لم يعلن عن ذاته إلا حين دق جرس انتهاء الاستراحة الأخيرة، أسرعت أسابق الزمن لأحصل على جرعة ماء قبل أن أشمل بعقاب التأخر عن دخول الصف بعد دق الجرس! كان إحساسي بالظمأ يتفاقم، هاجم الجفاف بلعومي وحلقي من كل جانب، في هذه الأثناء هبت زوبعة رملية نفخت دشداشتي ودفعتني إلى الوراء، الجهد الذي بذلته لمعاكسة تيار الريح الرملية جعلني عبارة عن عطش يتحرك! اندلع داخلي نشاط مسموع لتصورات الماء: "سأشرب بكفي! لا بل أصك بحلقي على حنفية الحب".

كان هناك ركن في ساحة المدرسة الخلفية، ركن مظلل بسقف خشبي مشبك، تتخلله عرائش عنب، وزعت فيه الحوابي الأربع الكبيرة المخصصة لشرب الطلاب الستمائة! أربعة حبوب: ثلاثة للمسلمين وواحد للصابئيين، صفت الحوابي بحيث ينطوي التكوين على كتلتين بالفراغ الملحوظ الذي يفصل بينهما، اتجهت مسرعًا إلى منطقة الشرب.

يالليحب الذي يتجمع على جلده حباب الماء المترشح عن مسامات باردة للطابوق المخضر! داهم تفكيري الحار فكرة التأخر عن الحصة، الوقت الذي يمكن التغاضي عنه هو دقيقة واحدة فقط! بعدها تتحول العقوبة من المعلم إلى الإدارة يعني ذلك أن باطن القدمين ستلقى عشر فلقات! لكن كل هذه الهواجس والاختلاطات انتهت حين مددت يدي وأدرت حنفية الماء، تخرج من كل حب حنفية طويلة، كان الحُب الأول فارغًا تمامًا، انتقلت إلى الثاني وأدرت الحنفية، تطلعت في الوقت ذاته إلى الحب الثالث، وبيد متأكدة من فراغه أدرت الحنفية، كان كل شيء ينبئ عن أن الحبوب نضبت.

كنت أسابق الزمن. ثم أخذ الظمأ يبطئ من تفكيري، وفي غمرة يأسي، بذلت المحاولة الأخيرة؛ وضعت فمي ثلاث مرات متعاقبة على أفواه الحنفيات وأخذت أمص جراها محاولاً سحب ما يكون قد تجمع فيها من قطرات، علقت

في حوافها ، لكن صفير الهواء ملأ فمي ! لمست ، وقد صعد في عيني بكاء مفاجئ جلد الحب القريب مني، كان ساخناً.

استدرت يائسًا في لحظة بدت كأنها نهاية العالم ، وفي منحنى الاستدارة لمحت نذر الخطيئة قاعدة بانتظاري ! وقع في نصف عيني حب "الصابئة" ! ثم بدأ الأمر يتضح شيئًا فشيئًا ، تناهى إلى سمعي وقع قطرات الماء المترشحة من قمع ذلك الحب تتساقط على قاعدة الطابوق الفرشي ، ليحدث ارتطامها وقعًا كأنه يبلل حافة إدراكي!

ملأت خابية الصابئة عيني... كان حزامها أخضر نديًّا ، تتجمع حوله حبيبات الرشح الجديد ، ثم عاينت حنفيتها ! كانت قطرة ماء على وشك السقوط منها ، وبرغم أن الحب لم يكن يبعد عني سوى نصف متر كنت لا أزال أراه ككوكب قصي ، بيني وبينه آلاف الملايين من السنين الضوئية ، لكني أشرف على لمعانه! عدت برأسي إلى خوابي المسلمين ! لا أدري كيف غزاني شعور غريب بالحياد بين الكتلتين ، إذ ذاك سمعت هسيس نار يندلع في مكان ما ، استدرت إلى حب الصابئة ، كان الخط الأحمر الذي يفصلني عنه قد بدأ بالاشتعال "العقيدة أدركت نيتي إذن" ، في لحظة واحدة فقط ناب الظمأ عني كليًا ، كل ما فعلته لم أفعله بل فعله أحد آخر... امتدت يد كأنها يدي إلى كرامة الحب بعد أن تحركت قدم كأنها قدمي خطوة نحوه!

رفعت الكرامة ، كان الماء صافيًا كمرآة مصقولة ! يبلغ مستوى حزام الحب... لكن رفع غطاء الحب حرك سطح الماء نحو حوافه مشتتًا صورتي التي انطبعت في مرآة الماء ، وفي لحظة مبهمة خاطفة امتدت يد كأنها يدي وحركت بأصابع مرتجفة خرطوم الحنفية فانهمر الماء مدرارًا ! اندفع فم كأنه فمي معترضًا المجرى من جميع الجهات! حتى أطبق عليه.

جرى الماء متدفقًا ثم انقطع بتوقف النفس... ثم متدفقًا... حتى غمر الزمان والمكان كله ، في تلك اللحظة فقط شعرت بجسدي لكنه لم يكن جسدي كليًا ! لم

أكن أحس الآن بشيء سوى بالفراغ والتعب والانتفاخ، وشيئًا فشيئًا أخذ الشعور بجسدي يقوى، غير أن هذا الجسد كان مُرًّا... كنت كمن يتذوق طعمه، استيقظت العقيدة كليًا لأدرك أني لا أحمل بطنًا بل خطيئة! أخذت أتحرك وقد اعتراني ذهول من يقاد إلى مصيره المحتوم! سرت لمصيري! قادتني قدماي إلى باب صفي.

يا للمفارقة! أخر حصة كانت حصة الاجتماعيات، ومعلم الحصة كان الأستاذ خلف غضبان الصابئي! لم أكن أقف على عتبة الصف بل كنت أقف فوق عتبة اللامبالاة بثبات عجيب! لقد دخلت الخطيئة في، فلم تعد أجزاء الذنوب الصغيرة (كالتأخر في دخول الصف) تهمني، نظر المعلم إلى ساعته، وقال:

– أين كنت؟

لم أسمع أن شيئًا صدر مني، لكني سمعت كلمته:

– ادخل

فدخلت... كانت دهشة الطلاب شديدة، فهذه أول مرة يُكسر فيها قانون التوقيت المدرسي الصارم، أحصل هذا بفعل تمازجنا المائي أنا ومعلمي الصابئي؟ بعد أن جلست في مكاني حلمت! ولا أدري كم مر من الوقت حين أحسست بحوارات تتقاطع حولي:

– أستاذ هذا مالك ابن يوسف نائم!

ميزت صوت المعلم:

– ما عليك منه.

– أستاذ كأنه مريض.

كأني جرم يتهادى في الفضاء بكتلته، هزتني من كتفي أصابع... فتحت عينين مثقلتين مملوءتين بطعم ذكرى الخطيئة وجرس الحلة (انتهاء الدوام المدرسي اليومي)، يزحف كأفاعي الجحيم وهي تدخل أفواجًا في أذني، كل ما في قد نفذ سوى هذه البقعة النجسة من الماء التي أحملها وأنا أسير نحو البيت، وشيئًا

فشيئًا بعد أن انحسر جزء من الماء عني بالامتصاص بدأت أحس بأنني شيء والخطيئة هي شيء آخر، لكن هذا لم يغير من شعوري بالمصير المحتوم الذي كان ينتظرني، ولهذا حين دفعت باب بيتنا الخشبي أرسلت الكلمات الأخيرة التي تمنح عادة لمن حكم عليه بالموت، وأنا أضع حقيبتي المدرسية جانبًا...

– بابا شربت من حب الصبة!

كان أبي قد فرغ من وضوئه توًا، تراجع قليلاً كأنه يريد أن يبصرني ثم صرخ بصوت مدو وهو ينهض بشيخوخته إلى الأعلى:

– الله أكبر الله أكبر...

لمحت في شريط الوجود الذي بدأ يتفكك أخي الذي يكبرني تتبعه أختي ينفذان من جانبي خارجين، ظل صوت أبي يتردد في جنبات الدار كأنه لطوله وقوته صار كالآذان! لمحت في ما يشبه لمح النائم أمي وهي تخرج من جوف البيت فزعة، وما أن خطت نحوي خطوة حتى أوقفها أبي:

– لا تلمسيه!

قبض علي... نزلت أيد ثقيلة على جسدي وطوتني كما تطوى قطعة الإسفنج، ثم رفعت إلى أعلى بعيد عن ملامسة الرافعين، كانوا أربعة فتيان من أبناء عمومتي، صاح بهم أبي :

– للشط... صلوا عليه.

انشغلت قليلاً بذيل الجملة الغامضة، صلوا عليه، "أهي الصلاة على الميت؟" رفست وأنا مرفوع بأيدي الأربعة الغليظة كحمل نفذت السكين من غشاء رقبته، ثم استسلمت للقوة...

* * *

مرة أخرى اختلطت الأفكار في رأسي طول المسافة من دارنا إلى الشط (لا تعدو مائة متر) ماذا تعني عبارة للشط.. صلوا عليه "أني سأدخل في المغيسل؟"

مكان غسل الموتى في المشرح، قبل أيام سرت مع أبي في موكب جنازة اتجه نحو الكرمة الثالثة من نهر المشرح، سجي الميت ثم شرع بغسله بآنية نقشت عليها آيات قرآنية، ثم وضع نبات في كفيه وضمتا وتحت إبطيه ثم لف بالكفن الأبيض وصلي عليه ووري التراب.

رفست قليلاً "ربما"... ملت برأسي جانبًا لشدة الضوضاء التي كانت تنبعث من ورائي ، فرأيت شطرًا من حشد من الصبيان يحف بموكب رفعي للسماء ! وصلنا ضفة النهر فأنزلوني، أمسك بي اثنان ونزل الآخران في النهر وقد رفعا ثيابهما إلى الحزام ، سلمني اللذان كانا على البر إلى من كانا في النهر ، وبدورهما دفعاني تحت الماء، رحت بعيدًا في الأعماق... ما أن التقطت فكرتي أنفاسها لتتكون حتى رفعت إلى أعلى، لتنطلق أصوات المحتشدين:

– صلوات على محمد وآل محمد.

ثم نزلت ورفعت، وتكرر الأمر سبع مرات، تتخللها الصلوات، بعدها وضعت على ضفة النهر لأسمع جملة استئناف الحياة:

– هيا اركض إلى البيت لقد تطهرت!

بعد سنين طويلة أدركت أني دخلت في التعميد؛ التطهير الرمزي بواسطة ماء النهر أو الماء الجاري... لأعرف أن ما كان يثير دهشتي من أفعال التعميد الغريبة لدى العقيدة.